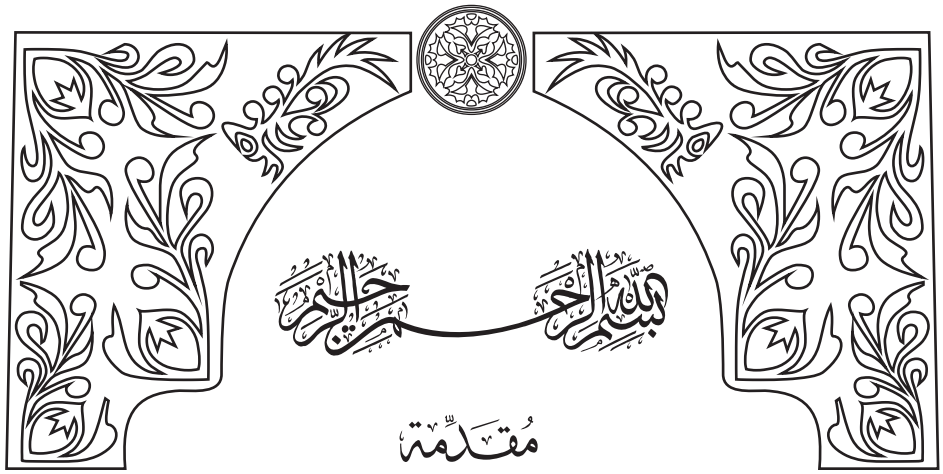

مُقَدِّمَة

الحمد لله الذي أحاط كلَّ شيء علمُه، والذي جعل الإنسان في الأرض خليفتَه، وأمره بإقامة شرعِهِ ومقاصدِه، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الهادي إلى دين الله وحقيقتِهِ، وعلى آله وأصحابه العالمين العاملين لله وحده.

وبعد:

فإن هذا البحث من أهم ما ينبغي أن يهتم به الباحث في الشريعة الإسلامية؛ وذلك لأهميته الفقهية والتعبدية، فهو يبحث في نية المكلف وإخلاصها لله جل جلاله، حتى يكون عمله عند الله مقبولاً ولا يصبح يوم القيامة هباءً منثوراً.

فالنية الخالصة لله جل جلاله هي أساس الدين وأصله، وعليها تبنى كل العبادات والأعمال، ولا قيمة لأي عمل من غير نية صالحة، فهي معيار لتصحيح الأعمال وفسادها، وبها يتميز الفعل، وعليها تترتب آثاره من صحة وفساد وثواب وعقاب.

والنية تمتد إلى ما لا نهاية، والعمل محصور، أي أن النية تبقى مستمرة بخلاف العمل، فإنه ينقطع بالموت، ولذا قيل: «إنَّ دخول الجنة بفضله

سبحانه وتعالى، ودرجاتها بحسب الأعمال، والخلود بالنية. ودخول النار بِعَدْلِهِ سبحانه، ودركاتها بمقابلة الأعمال، وخلودها بالنية»[١].

فالكافر إذا عاش سبعين سنة، فمقتضى ظاهر العدل أنه لا يعذب أكثر من ذلك، ولكنه يخلد في النار باعتبار نيته الخبيثة؛ لأنه لو عاش أبد الآبدين لكان مستمراً على وصف الكافرين والمنافقين.

فجدير بالعلماء والفقهاء أن يبذلوا جهودهم في تعليم الناس مقاصدهم في أعمالهم قبل أن يعلموهم أمور دينهم، وأن يعلموهم مقاصد الله عز وجل في شرعه، حتى تكون مقاصدهم موافقة لمقاصد الله تعالى، وحتى يتحقق الهدف من خلق الإنسان، وهو خلافة الله في أرضه، وإعمارها كما يريد الله جل جلاله ويرضى.

وقد عرف علماؤنا الأقدمون قَدْرَ النية فجعلوها القاعدة الأولى من قواعد الفقه، وهي قاعدة: (**الأمور بمقاصدها**)، وقالوا: إن هذه القاعدة تعادل ثلث العلم؛ لأن كسب العبد يكون بقلبه ولسانه وجوارحه، والنية أحد هذه الأقسام.

كما تواتر النقل عن الأئمة في تعظيم قَدْرِ النية، فأدخلها الشافعي- رحمه الله - في سبعين باباً من أبواب الفقه، أي ما يعادل ربع العلم أو ثلثه، وأدخلها غيره في ثلاثين.

وكذلك استفتحوا بها كتبهم ومصنفاتهم لينبهوا طالب العلم بأن عليه أن يخلص نيته في طلب العلم لله جل جلاله، ولا يتخذ دينه وسيلةً لبلوغ مقاصده الدنيوية.

---

(١) (تطَّهِيْر الطوية بتحسين النية) للشيخ علي سلطان محمد القاري: ص٢٧.

وهذا الكتاب ليس بحثاً في الأحكام الفقهية المتعلقة بالنية فحسب، بل هو كتاب جامع لكل ما يتعلق بهذا الموضوع من غايات وبواعث ومقاصد، فهو يغطي كل الجوانب الهامة للنية التي يحتاجها جندي الدعوة والعقيدة في عباداته وتصرفاته، حتى لا يجري وراء المطامع، ولا يخطف بصره بريق الشهرة، ولا يجذب قلبه سطوة الجاه والنفوذ. وحتى لا يكون كتجار المبادئ الذين لا يعملون إلّا ليغنموا، ولا المرائين الذين لا يعملون إلّا ليراهم الناس، ويسمعوا بهم، ويتحدثوا عنهم، ويشيروا إليهم بالبنان.

فالحق لا ينتصر إلاّ بالمخلصين جند الدعوات وحملة الرسالات، الذين يضعون هدفهم أمامهم ويسعون إليه بإخلاص، مؤثرين مضحين، لا مستفيدين ولا آخذين.

والنية هي مقصد المكلف في جميع أفعاله وأقواله؛ لذلك فإن على المكلف أن ينظر إلى نيته وقصده قبل القيام بأي عمل أو قول، فإن كانت نيته موافقة لمقاصد الشرع فهي نية صحيحة والعمل صحيح، وإن خالفتها فهي فاسدة والعمل فاسد.

فكما أن المكلف له مقاصد وغايات من وراء كل أفعاله وأقواله، فكذلك الشارع الحكيم له مقاصد وغايات من كل تشريعاته وأحكامه؛ لذلك لا بد أن تتوافق مقاصد المكلفين مع مقاصد رب العالمين وتحققها؛ لتتحقق الغاية من وجود الإنسان على هذه الأرض، ألا وهي خلافته لله عز وجل في أرضه، وبناء المجتمع الفاضل الذي يحقق للإنسان السعادة في الدارين.

هذا وإن جميع الشرائع السماوية جاءت لما فيه مصلحة البشر في العاجل والآجل كما تقتضيه درجة الرشد التي وصل إليها الناس في كل زمان

ومكان، وقد كانت الشرائع السماوية تترقى برقي الإنسانية إلى أن جاء الإسلام، حيث كانت الإنسانية يومئذ قد بلغت درجة عالية من الرقي والمعرفة تستطيع معه أن تتفهم أسرار الكون وخالقه، وأن تبذل الجهد في تطبيق شرع الله، وفهم الغاية التي من أجلها وجد الإنسان على أرضه، فأرسل الله إلى البشرية محمداً ﷺ ومعه خلاصة ما جاءت به الأنبياء والرسل من قبله، وما لم يأتوا به مما اقتضته درجة الرشد والكمال الإنساني.

وهكذا اكتملت تشريعات الله تعالى باكتمال العقل الإنساني الذي لم يعد بحاجة إلى إرسال الرسل، بل أصبح بمقدوره الاعتماد على نفسه في معرفة أحكام الله تعالى من خلال ما تركه خاتم النبيين محمد ﷺ من الكتاب الكريم والسنة النبوية الشريفة، وأصبح بمقدوره أيضاً استنباط أحكام شرعية جديدة لكل ما يستجد ويحدث من الحوادث التي لم يكن لها مثيل في عصر النبوة والتشريع وذلك عن طريق استقراء جزئيات الشريعة وربطها ببعضها، واستنتاج مقاصدها الجليلة التي تُعد من أهم مصادر التشريع الإسلامي بعد الكتاب والسنة والقياس؛ لأن علم المقاصد نوع دقيق وخفي من أنواع القياس.

وقد ثبت بالأدلة القطعية أن الله لا يفعل الأشياء عبثاً، فقد قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾[2] والشواهد على ذلك كثيرة.

وبذلك ثبت أن لله تعالى مقاصد وغايات وعللاً في جميع أفعاله وأحكامه، وحتى أنه تعالى قد علل بنفسه كثيراً من أفعاله في كثير من آيات

(١) المؤمنون ٢٣/ ١١٥.
(٢) الدخان ٤٤/ ٣٨-٣٩.

القرآن الكريم، حيث قال تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾(١)، وقال عز من قائل: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾(٢)، وقال جل جلاله ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾(٣) وغيرها من الآيات التي لا حصر لها، والتي تدل على أن الله تعالى مقاصد وغايات جليلة من خلق الكون والإنسان، ومن جميع تشريعاته للبشرية.

والفقيه بحاجة إلى معرفة هذه المقاصد الشرعية من جميع جوانبها، وذلك لدوام أحكامها للعصور والأجيال التي أتت بعد النبي ﷺ، والتي تستمر إلى انقضاء الحياة الدنيا.

وعلى العلماء أن يبذلوا جهدهم في فهم تلك المقاصد، وأن يتقربوا إلى الله عز وجل بكثرة العبادة الخالصة لله، والطاعة والذكر حتى تسمو نفوسهم وتتفتح قرائحهم للتلقي عن الله عز وجل الفتح والإلهام.

○ ○ ○

(١) النساء ٤/ ١٦٥.
(٢) الأنبياء ٢١/ ١٠٧.
(٣) هود ١١/ ٧.